وجع التراب

عبد السلام غيور (×)

لعل المتتبع للدراما المغربية التي تعرض على شاشة التلفزة المغربية سواء في القناة الأولى أو الثانية يطرح عدة أسئلة جوهرية سواء من حيث المضمون أ والجمالية الفنية والتقنية للأعمال المقدمة. ومن بين الجوانب المؤثرة في إنجاح العمل، سواء كان تليفزيونيا أو سينمائيا، الموسيقى التصويرية، التي تدخل كمكون من مكونات العمل الفني الجيد، والذي يجب أن يخضع إلى مجموعة من الشروط أساسها: التعبير عن المشاهد حسب انفعالاتها وأحاسيسها، والتعبير عن جوهر وماهية النص حسب فضاء الأحداث والتفاعلات.

فالمتتبع لهذه الأفلام يجدها بعيدة كل البعد عن الواقع، مما يجعلها عنصرا دخيلا يدفع المشاهد إلى النفور من العمل أو العزوف عن المتابعة أو المقاطعة. وهناك البعض الآخر من هذه الأفلام توظف موسيقاها بكل عناية وجمالية، مما يجعلها محط اهتمام وقبول لدى قاعدة واسعة من المهتمين. ومن بين هذه الأعمال المسلسل التلفزيوني الدرامي الكوميدي لشفيق السحيمي«وجع التراب» والذي تقدمه القناة الثانية. فخصائص هذا المسلسل تجعل منه عملا مشرفا يستحق المشاهدة، نظرا لعوامل متعددة منها ارتباطه بالأرض عامة وفضاء البادية خاصة، البادية المغربية بكل تجلياتها:اللباس، لكنة اللغة ،العلاقة الوجدانية مع التربة، الماء والهواء والكائن الحي في تفاعل مع هذا الفضاء. كل هذا الكيمياء والتفاعل أدى إلى إبداع وسائل متعددة للتعبير عن أحاسيسه من فرح وآمال وحب للحياة من جهة وتجسيدا لحالات الانكسار الظلم والمعاناة والحيف من جهة أخرى. إن الموسيقى أبرز هذه الوسائل التعبيرية التي أنتجها الإنسان القروي. فمن خلال الموسيقى التصويرية التي وظفت في مسلسل«وجع التراب» والتي كانت من تأليف الفنان عبد الفتاح النكادي الذي سبق له أن ألف عدة أعمال فنية أخرى ومسلسلات تلفزية: مسرحية عزيزي مع الأستاذ الطيب الصديقي وعروض مع الفنان الساخر بزعيز، ففي هذا العمل نجد ذ.النكادي عبد الفتاح اهتم بأحد المكونات الغنائية المغربية المعروفة والتي أفرزها تلاقح وتمازج خصوصيات ثقافةالانسان الأمازيغي والموروث الثقافي الخاص بالقبائل العربية القادمة من المشرق«بنو هلال» كألوان غنائية مرتبطة بالفضاء الواسع وقيم الإنسان البدوي ومن بينها: فن العيطة كغناء بدوي يتميز ببساطته وبنفحة غنائية خاصة تجعله يختلف عن الألوان الغنائية المعروفة بالمغرب.

استهلت حلقات المسلسل«وجع التراب» بموسيقى لأغنية ذات قيمة رفيعة سواء من حيث النص الشعري العامي أو من حيث اللحن الذي وظفت فيه. فالأغنية تدخلك خلوات البادية وكنه تراثنا الغنائي عبر مشاهد متعددة ومتنوعة للمسلسل.

أغنية الجنيريك:

سيدي أحمد ضيف عند لمحاين نازل
البغض فاتل خيوط لمغازل
دارو ما بقات وجه الدوار
ودوار عالمحنة غازل
شكون لكاد لسيدي أحمد لعمامة
رآه ما حنا فيوم لزمان قامة
وسط الريح ولمطار شحيح
خبار الناس يا خويا في الناس أنبيح

هذه الأغنية والتي أبدع فيها الفنان عبد الفتاح النكادي من حيث اللحن والتوزيع الموسيقي والفنانة خديجة العمودي من حيث الأداء والتي جسدت من خلال أدائها مكانة ورمزية المرأة البدوية كجزء فاعل في المجتمع المغربي، فالمستمع لهذه الأغنية يجدها بخصائص مميزة انطلاقا من النص الشعري العامي البسيط، مرورا بالموسيقى الخالية من أي تعقيد. وهذا يتضح من خلال الجمل الموسيقية الموظفة في الأغنية: فاللحن يبتدئ بمقام «بياتي على درجة لا» ثم ينتقل إلى مقام «نهاوند على درجة ري». هذا التنوع أعطى لهذه الأغنية جمالية خاصة بعيدة عن كل ملل وبوجود زخارف فنية مهمة أعطت لهذه العيطة جماليتها على اعتبار أن الزخارف تعتبر من بين أهم المكونات التي تميز العيوط المغربية، إضافة إلى كون الجمل الموسيقية أكثر تطورا، فالعيطة توظف فقط في أقصى حالاتها خمس علامات موسيقية لا تتجاوزها، مما يعطي انطباعا أن الجملة الموسيقية ضعيفة في شكلها رغم أنها تؤدي الوظيفة النغمية، ولكن بشكل غير مقنع، نظرا لمجموعة من الاعتبارات لا يتسع المجال هنا لذكرها. أما من حيث الإيقاع فهو إيقاع غير منتظم يستجيب لحبات الكلام، أي الشعر العامي الذي يتكون من كلمات ذات حروف المد، وهذه الخاصية تتميز بها العيطة الحصباوية كإحدى العيوط المغربية الموجودة في نواحي مدينة أسفي.

إن المقاطع الموسيقية الأخرى التي وظفت في مسلسل«وجع التراب» تأخذ شكلا أو قالبا مركبا من الناحية الحركية، أي أنها تبدأ بطيئة)موسع(، وتتحول إلى حركة سريعة راقصة والتي تعتبر من بين أهم الخصائص الإيقاعية المهمة في الغناء العيطي من خلال ميزان ثنائي مركب 6على8 .

لقد سافرت بنا المقاطع الموسيقية الموظفة في المسلسل عبر مجموعة من البوادي المغربية باستعمال مقام البياتي سواء على درجة«مي» أو البياتي على درجة«لا» ،هذا المقام يوظف في مجموعة من العيوط المغربية: المرساوي، الملالي، الحصباوي، الحوزي، والزعري...و مقام «الحجاز» على درجة«مي » سواء المعروف في الموسيقى الشرقية والذي توظفه العيطة المرساوية بشكل كبير أو «مقام الحجاز» ذو نغمة لا ترتكز على ربع الصوت وهو نوع من«مقام الحجاز» لا علاقة له بالحجاز المعروف في الموسيقى الشرقية أي بنفحة خاصة بحيث يتم استعمال علامات موسيقية لا هي بربع الصوت ولا طبيعية والذي توظفه العيطة الجبلية إضافة إلى نوع الإيقاع الأعرج الذي تعتمد عليه. كما تم توظيف«مقام دو» الكبير من خلال مقطع موسيقي، ولكن بنفحة خاصة«نمط الساكن» المرتبط في بعض العيوط بالأولياء والذي ينتشر في البوادي المغربية.

لقد عمل المخرجان السحيمي ورضوان القاسمي على توظيف أشكال متعددة من الغناء المغربي الشعبي سواء الأمازيغي، وذلك من خلال مشاهد لمجموعة تقوم بأداء رقصة من أعرق الرقصات المغربية والمعروفة في مناطق الأطلس المتوسط ومناطق الدير: رقصة أحيدوس أو الثنائيات أو الثلاثيات. الوتار والبندير... وهي أحد أشكال التعبير العيطي بالمغرب والتي عبروا من خلالها عن إبراز مجموعة من الأنماط الغنائية المغربية.

إن الخاصية التي يمكن تسجيلها حول المقاطع الموسيقية التي وظفها الملحن الأستاذ عبد الفتاح النكادي تكمن في توظيف مقام النهوند موزعا بين مجموعة من الآلات :البيان الكمان، والعود، تخللتها بعض المقاطع على آلة الكمان على مقامي البياتي والحجاز، كما نستمتع بإيقاعات رائعة عبر نقرات وظفت بشكل منسجم ورائع.

فتحية للمؤلف الموسيقي والأستاذ عبد الفتاح النكادي، ولكل هذه الطاقات المبدعة التي عملت على خلق أحد الأسس المهمة لمد جسور ووضع لبنة في تصالح المواطن المغربي عامة والبدوي خاصة مع تراثه القديم، والذي يتعرض إلى شتى أنواع التحريفات والتهميش، حيث عملت مجموعة من المؤسسات على إفراغ فن العيطة من محتواه النبيل الصادق والدفع به إلى أوكار اللهو والميوعة من خلال مجموعة من المتطفلين الذين أساؤوا إلى تراثنا الشعبي عامة والعيطة المغربية خاصة بكل أشكالها سواء العربية أو الأمازيغية وبكل أشكال أدائها وترية عبيدات الرمى شيخات... .

كما لا يسعني إلا أن أقدم تحية صادقة إلى كل من ساهم ويساهم في إزالة الحيف والتهميش عن هذا الفن الموسيقي الغنائي المغربي الأصيل النبيل الذي يعبر عن روح البادية المغربية وعن روح الإنسان المغربي والذي جعلها وسيلة ذات أبعاد متعددة عاطفية، وطنية، دينية وجدانية للتعبير عن كل آماله وطموحاته.

(×) (مهتم بالتراث الغنائي المغربي) بني ملال

الاتحاد الاشتراكي
الثلاثاء 16 يناير 2007